الفصل الثاني

يقظة الجزائر في مطلع القرن العشرين

كان الصدام بين الثقافتين الأهلية الأصلية، والدخيلة الغازية أعنف وأوضح في الجزائر منه في تونس والمغرب؛ وذلك نتيجة للتغيير الجذري والعنيف الذي أحدثته فرنسا في نظام الحكم والإدارة والمجتمع في الجزائر. ومع أن هذا الصدام قد تغذى على إيديولوجية الاستعمار بالدرجة الأولى، فإنه قد تأثر أيضاً بمواقف (المعمّرين) العنصرية. وفي الوقت الذي اتسعت فيه الهوة بين المجتمعين - المستعمِر والمستعمَر - في المجال الاجتماعي والاقتصادي والنفسي، انكفأ المجتمع الأهلي على نفسه، واتجه نحو (الذات) باحثاً عن خصائصها وعما يمنحها القوة من داخل عناصرها، وهو ما يفسر كيف استطاع هذا المجتمع، بعد قرن وثلث القرن من الاستعمار أن يحتفظ بعقيدته التي هي جوهر هويته، ويحافظ على أسس ثقافته. فقد رفض الشعب بدايةً الحضارةَ الغربية التي ينتسب إليها المحتل[1] واستمات في الدفاع عن هويته المحاصرة على الرغم مما أصاب المجتمع جراء السياسات الاستعمارية التي استعرضنا

(١) بردو: مرجع سابق، ١٥٥.

بعضها في الفصل الأول. ومن مظاهر ذلك الإصرار ما شهدته الجزائر في مطلع القرن العشرين من يقظة ثقافية واجتماعية اختمرت عبر السنين، وتفاعلت مع عدة عوامل محلية وإسلامية وعالمية.

ولعل من أقوى تلك العوامل المحلية التي أسهمت في هذه اليقظة الأدب الشعبي الذي كان أقدر تعبيراً عن آلام الشعب وآماله في تلقائية رائعة، ولقد أدى الأدب الشعبي في المجتمعات الشرقية عامة ومجتمعات المغرب العربي على وجه الخصوص دوراً كبيراً في الحفاظ على الهوية الوطنية ودعم عواطف الجماهير والتعبير عن وجدانها. وقد نتج عن ضعف الأدب الرسمي وتدهور التعليم ومنع الكتب والمطبوعات وندرة وسائل الإعلام والاتصال، أن لجأ الجزائريون إلى الأدب الشعبي بوصفه مجالاً إبداعياً ووسيلة لتصوير محنتهم والتعبير عن أمل ما في مستقبلهم. وهكذا فمن جيل إلى جيل «حُفظت الثقافة الوطنية في الأمثال، والأغاني الشعبية، وجميع أنواع الأدب الشفوي الذي ظل مرآة تعكس حياة الناس ونضالهم»[١].

وقد أدت شخصية (المدّاح) في الجزائر دوراً مهماً في الأدب الشعبي[٢]؛ حيث كان موجوداً في الأسواق العامة، والمقاهي، والمناسبات الاجتماعية، يحكي القصص والأساطير التي تحرك العواطف، مذكراً بالغزوات، ومحوّلاً الهزائم إلى انتصارات، مؤكداً لجمهوره بأن الله سوف يرسل إليهم ذات يوم منقذاً[٣]، وبذلك كان دور

(1) Ahmed T. Ibrahimi, **De la Decolonisation a la Revolution Culturelle,** Algiera, 1979, P. 14.

(2) Pierre Boyer, **la Vie Quotidienne a Algier a la veille de l'intervention Francaise,** Hachette, 1963, P. 204.

انظر كذلك: بردو: ٩٤.

(٣) أبو القاسم سعد الله: **الحركة الوطنية**، ٨٥، (النسخة الإنجليزية) ٦٤.

المداح إيجابياً بالنسبة إلى الجزائريين الذين طمست شخصيتهم الوطنية، مما جعلهم مصرّين على «أن يظلوا مختلفين كرمز لحريتهم المفقودة»[١].

ومن العوامل المحلية الأخرى التي أسهمت في يقظة الجزائر الثقافية والاجتماعية ظهور نخبة جديدة من المثقفين ذوي هوية وطنية أصيلة. فقد بدأت المدارس العربية خلال هذه المرحلة في الظهور بفضل مجهود نخبة مثقفة، كما حدث في الوقت نفسه تغيّر واضح في موقف الجزائريين من التعليم الفرنسي؛ إذ بدؤوا يهتمون بتعليم أبنائهم العربية والفرنسية معاً. وإن ظلَّ التعليم العربي رهين أغلال التلقين والحفظ وغياب عامل التشويق والابتكار. وقد أشار إلى ذلك مالك بن نبي في (**مذكرات شاهد للقرن**)، في معرض حديثه عن حرص أهله على إرساله إلى المدرستين القرآنية والفرنسية، ولكنه لم يمل إلى الأولى فتركها واقتصر على الفرنسية، الأكثر تشويقاً. ومع ذلك فإن الجيل الذي عاصر بن نبي استطاع نسبياً الجمع بين التعليمين، ذلك أن الطلاب الجزائريين الذين كانوا يلتحقون بالمدارس الفرنسية القليلة المتوفرة آنذاك، كانوا دائماً يُحصَّنون بالتعليم الأوّلي العربي - الإسلامي[٢]، وقد تلقى كثير من هؤلاء بعد ذلك دراستهم العليا في تونس التي استقبلت بعضهم بوصفهم مهاجرين وبعضهم الآخر بوصفهم طلاباً.

كان المهاجرون الجزائريون أحد العوامل المهمة في يقظة بلادهم في مطالع القرن العشرين. فبعد الهجوم الذي شنته فرنسا على الجزائر عام ١٨٣٠م، وبعد المعارك المتعددة مع شعبها، وبعد إصدار قانون التجنيد الإجباري العام سنة ١٩١١م، غادر البلاد عشرات الآلاف من الجزائريين

(١) جاك بيرك: مرجع سابق، ٣٥٨.

(٢) محمد علي دبوز: **نهضة الجزائر وثورتها المباركة**، المكتبة العربية، الجزائر، ١٩٧١، ٢/٣٥٨.

مهاجرين إلى تونس وليبيا والمغرب، وإلى مصر وسورية وتركيا، وغيرها[١]. وكانت هجرة هؤلاء تتم في شكل جماعات كبيرة تضم عائلات بأكملها، وأحياناً عشائر[٢]، كما ضمت هذه الهجرات، في أحيان كثيرة، أعداداً من أعيان المجتمع الحضري وأثريائه، الذين كانوا يحرصون على اعتبار أنفسهم، أينما حلّوا، جماعة وطنية جزائرية، رافضين اعتبارهم عثمانيين[٣]. وقد اكتسب هؤلاء - وخاصة من هاجر منهم إلى سورية - كل التقدير والاحترام، واعتبروا أبطالاً ووطنيين. كما أسهم الأمير عبد القادر، الذي عاش في دمشق متمتعاً باحترام العثمانيين واعتراف الفرنسيين، في زيادة وعي المغاربة عامة والجزائريين خاصة، بتاريخهم وهويتهم وقضيتهم الوطنية.

لم يعش المهاجرون الجزائريون منعزلين في أوطانهم الجديدة، بل على العكس؛ فلقد شاركوا في العديد من النشاطات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، كما حافظوا على علاقاتهم مع أقاربهم وأصدقائهم داخل الجزائر عن طريق المراسلة، وخارجها عند مواسم الحج، ومن خلال الأفراد الذين يرحلون إلى المشرق للتجارة[٤]، وقد حرص المثقفون من المهاجرين على التواصل مع الوطن، ليس عن طريق مكاتبة

(١) من الجزائريين الذين هاجروا عام ١٩١٠م، قُدّر عدد الذين ذهب منهم إلى سورية وفلسطين بـ ١٧٥٠٠، والذين عبروا إلى طرابلس بـ ٨٠٠٠، وهناك ألف استقروا في المدينة المنوّرة. لمزيد من التفاصيل، راجع: مورسي، ٢٦٥ - ٢٩٦.

(٢) من أمثلة الهجرات الجماعية هجرة الأمير عبد القادر عام ١٨٥٥م الذي وصل إلى دمشق مع خمسة وثمانين من أفراد عائلته، وقد سبقه إليها عام ١٨٤٧م أحمد بن سالم، أحد خلفاء الأمير، ومعه أكثر من أربع مئة وأربعين فرداً من عائلته وأتباعه.

(٣) مورسي: مرجع سابق، ٢٩٥.

(٤) سعد الله: **الحركة الوطنية**، (النسخة الإنجليزية)، ١٤٨.

الأقارب والأصدقاء فقط، وإنما عن طريق إرسال الكتب والمطبوعات العربية أيضاً[١]، وبذلك استطاع جزائريو الداخل متابعة أخبار المهاجرين ونشاطاتهم، واهتموا بالأدوار التي كان مواطنوهم يؤدونها في مجتمعاتهم الجديدة، وعلى رأس هؤلاء محمد بن علي السنوسي (١٧٨٧-١٨٥٩م) الذي أدى دوراً تاريخياً في ليبيا خاصة، ووسط إفريقيا عامة؛ وكذلك أبناء الأمير عبد القادر الستة الذين احتلوا مناصب عليا في الدولة العثمانية، وأولهم الطاهر الجزائري (١٨٥٢ - ١٩٢٠م) الذي كان له تأثير عظيم في محب الدين الخطيب (١٨٨٩-١٩٦٩م) أحد رواد النهضة الشوام، كما ساعد في إنشاء مكتبة الخالدية في دمشق، وفي نشر التعليم بسورية. ومن هؤلاء المهاجرين عبد العزيز الثعالبي (١٨٧٦-١٩٤٤م) الذي أنشأ **حزب الدستور التونسي**، وأحمد توفيق المدني (١٨٨٩ - ١٩٨٣م) الذي هاجر إلى تونس وقام فيها بعدة أنشطة، والشيخ إبراهيم طفيش (١٨٨٨-١٩٧٣م) الذي عاش في القاهرة، وأصدر فيها جريدته (**المنهاج**)، والشيخ الطيب العقبي (١٨٨٩-١٩٦٠م) الذي عاش في مكة وحرر جريدة (**القبلة**) إبان عهد الشريف حسين، وغيرهم[٢].

وقد تبلور نشاط هؤلاء الجزائريين بصورة أكبر عندما عاد في العقدين الأولين من القرن العشرين عدد من خريجي المعاهد العربية الذين تلقى كثير منهم دراسته في تونس. وقد أسهم القرب الجغرافي والتحصيل العلمي في تقوية التفاعل الاجتماعي والثقافي بين البلدين، فكان من أهم عوامل اليقظة الجزائرية في مطلع القرن العشرين.

---

(١) دبوز: مرجع سابق، ٣٧.

(٢) هناك أمثلة عديدة على نشاط الجزائريين في المهجر. انظر: محمد صالح الجابري: **النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين في تونس (١٩٠٠ - ١٩٦٢م)**، الدار العربية للكتاب (تونس) والشركة الوطنية للنشر والتوزيع (الجزائر)، ١٩٨٣م.

أثر تونس في اليقظة الجزائرية

عرفت تونس، قبل أن يغزوها الفرنسيون، نخبة من الرواد المصلحين، على رأسهم خير الدين التونسي (١٨١٠ - ١٨٨٩م) الذي بذل جهداً في العناية **بجامع الزيتونة**، وأسس **المدرسة الصادقية** عام ١٨٧٥م، التي تكوّنت بفضلها نخبة متميزة جمعت بين الثقافتين الإسلامية والأوربية. ومن جهوده الإصلاحية أيضاً إنشاء المكتبات العامة، ودور الطباعة[١]، وتأسيس المدارس، حتى وُجد في تونس في عام ١٩٠١م مئة وخمسون مدرسة حديثة للأولاد والبنات. ومن أعماله التي تعبر عن رؤيته الإصلاحية كتابه الشهير (**أقوم المسالك في أحوال الممالك**) الذي طبع أول مرة عام ١٨٦٧م.

كانت تونس محمية فرنسية ولم تكن مستعمرة، وقد تمتعت لذلك بحرية نسبية مكنتها من أن تكون مصدراً للتعليم والثقافة بالنسبة إلى جاراتها المغاربيات، وعلى الخصوص الجزائر؛ فلقد كانت خطة فرنسا أن يُسمح للتونسيين بالتطور والتقدم في إطار حضارتهم الخاصة[٢]؛ ولذلك، وعلى عكس الوضع في الجزائر، استطاعت أن تتكوّن في تونس حركة علمية وثقافية وأدبية، وأن تتطور وتؤثر[٣]، ففي المدة الواقعة بين عامي ١٨٨٨م و١٩٠٩م ظهر خمس وأربعون مطبوعة، كما ازداد عدد المطابع، وازدهرت حركة التأليف والنشر[٤]. وقد حفّزت الحركة العلمية والثقافية في تونس المصلح محمد عبده لزيارتها مرتين؛ الأولى في عام

---

(١) مورسي: مرجع سابق، ١٩٤.

(2) Leon Carl Brown, **Tunisa: The Politics of Modernization,** Praeger, New York, 1964, P. 12.

(٣) لمزيد من التفصيلات انظر: محمد الفاضل بن عاشور: **الحركة الفكرية والأدبية في تونس**، الدار التونسية، تونس، ١٩٧٢م.

(٤) المرجع السابق: ٨٧.

١٨٨٤ - ١٨٨٥م، والثانية في عام ١٩٠٣م. وكانت تربطه علاقات حميمة مع عدد من المثقفين التونسيين الذين كانوا أعضاء في (**جمعية العروة الوثقى**)، من أمثال الشيخ محمد السنوسي (١٨٥١-١٩٠٠م) والشيخ محمد بيرم الخامس التونسي (١٨٤١- ١٩٠٠م) والشيخ سالم بوحاجب (١٨٢٧-١٩٢٤م)، وهؤلاء هم الذين أوحوا للأفغاني وعبده بإصدار مجلة (**العروة الوثقى**) في باريس. وكان الشيخ سالم بوحاجب قد نُفي إلى مصر، وهناك اتصل بحركة **العروة الوثقى** وآمن بفكرتها وأهدافها، ثم عمل بعد أن عاد إلى وطنه على تأسيس فرع تونسي للجمعية[١].

كانت تونس تتمتع بقدر من الحرية مهد لنوع من التفاعل الثقافي في الداخل والخارج معاً، فقد كانت «مفتحة الأبواب للمشرق العربي الثائر الناهض، لا يمنع الاستعمار عنها صحفه وكتبه كما يفعل في الجزائر (...) وكانت الكتب المصرية الدسمة تزخر بها مكاتب الخضراء، وسوق الكتبية في الخضراء، [وكانت] الجرائد المصرية الوطنية، وكل مجلاتها الراقية تصل في كل أسبوع إلى تونس فيتخطفها الناس، فيقرؤونها (...) وكانت تونس هي مصر بما يصلها من كتبها وصحافتها، فتكوّن فيها جو أدبي سياسي علمي لا يوجد في المغرب كله إلّا في تونس الخضراء»[٢].

ولا شك أن تونس كانت تتميز أيضاً بقدرات ذاتية شكلت العامل الأساسي في ازدهارها الفكري، إذ كان فيها جامع الزيتونة العريق، ومعهد ابن خلدون المتمم له، الذي كان يجمع بين العلوم التقليدية والحديثة، وكانت تدرَّس فيه الفرنسية إلى جانب العربية؛ وكان فيها كذلك (**معهد العطارين**) للترجمة الذي تفاعلت فيه العربية والفرنسية في

---

(١) الطاهر عبد الله: **الحركة الوطنية التونسية رؤية شعبية قومية (١٨٣٠-١٩٥٦م)**، مكتبة الجماهير، ١٩٧٦م، ٣٠ - ٣١.

(٢) دبوز: مرجع سابق، ٢/١٧.

بعديهما اللساني والفكري. وكان بتونس عدد من العلماء الأكفاء الذين يدرِّسون في هذه المعاهد العلمية، ويحاضرون خارجها من أمثال محمد بن يوسف، والطاهر بن عاشور، والصادق النيفر، وبلحسن النجار، وعبد العزيز جعيط، والعربي الماجري، والشيخ محمد الزغواني، والشيخ العمورَدي. ولا ننسى عثمان الكعاك، وحسن حسني عبد الوهاب، والشيخ العربي الكبادي، وغيرهم.

ولا عجب أن تكون تونس الجسر الذي ربط بين المشرق والمغرب العربيين، فمنها دخلت الصحافة المعادية لفرنسا إلى الجزائر، ومن حدودها كانت الكتب والصحف تهرّب مخترقة أجهزة الرقابة الفرنسية الصارمة، ذلك أن الصلات الثقافية بين تونس ومصر كانت قوية على مدى التاريخ، وكان من مظاهرها في العصر الحديث ما كان للشيخ الثعالبي من صلة بأحمد شوقي، ولم يكن غريباً أن يلقب شاعر الثعالبي، محمد الشاذلي خزندار، بأمير شعراء تونس؛ وهو المعروف بتأثره بالشاعر المصري، وقد خمّس وسبّع وعارض عدداً من قصائد شوقي المشهورة[١].

وقد عكست صحافة العشرينيات التونسية ما كانت تموج به الصحافة المصرية من سجالات أدبية ومعارك فكرية، كما كانت الندوات الثقافية التي تعقد في نواد مثل (**نادي قدماء الصادقية**) و(**نادي الثلاثاء**) و(**نادي الخميس**) و(**معهد ابن خلدون**) تستعرض وتناقش القضايا التي تبحث في منابر مصر الفكرية. وقد سجلت الصحافة التونسية أحزان التونسيين لوفاة المويلحي عام **١٩٣٠**م، ووفاة حافظ وشوقي عام **١٩٣٢**م، وأقيمت لهم حفلات تأبين تحدث فيها عبد الرحمن الكعاك، ومحمد الفاضل بن عاشور، ومحمد العربي الكبادي، والشاعر عبد الرزاق كرباكة[٢].

---

(١) انظر علي الشابي، "إطار لدراسة تأثير شوقي في الشعر التونسي"، **مجلة فصول**، كانون الأول/ ديسمبر **١٩٨٢**م، ٢٣٦ - ٢٤١.

(٢) المرجع السابق.

ولابد أن يشار في هذا السياق إلى الصدى الكبير الذي أحدثته آراء جماعة **الديوان** بين الشعراء والأدباء التونسيين، فتحيّز فريق منهم ضد التقليد والصنعة في الشعر كما ظهر في محاضرة أبي القاسم الشابي (١٩٠٩-١٩٣٤م) **الخيال الشعري عند العرب** وفي رسائله إلى صديقه الحليوي[١]، وقد انضم الشابي ورفاقه الرومانسيون إلى جماعة أبولو فيما بعد، وأعجبوا بشعر أبي شادي وزملائه، وساروا على خطا هذه المدرسة وأفكارها.

ونظراً لتميز تونس الثقافي فقد أرسلت كثير من الأسر الجزائرية أبناءها إلى المعاهد العلمية في تونس، في حين هاجر إليها فريق آخر هرباً من الاستعمار، ونفي إليها بعد ثورة ١٨٧١م فريق ثالث. وقد لمس الجزائريون الذين أقاموا في تونس مظاهر نهضتها في مدارسها العصرية، ومناهجها المتجددة، وجمعياتها الأدبية والسياسية، وصحافتها الحرة الملتهبة التي لا تتوانى عن شنّ حملاتها ضد الاستعمار، وخاصة ما كان ينشره الثعالبي من مقالات نارية؛ وكذلك المظاهرات الشعبية الكبيرة التي كانت تخرج مطالبة بالحرية والحياة البرلمانية الديمقراطية. وباختصار فقد (كانت تونس ساحة معركة كبرى بين الصليبية الفرنسية والإسلام، والوطنية المخلصة والاستعمار) فلا عجب أن تقوم السلطات الاستعمارية في الجزائر بمنع سفر الجزائريين إلى تونس إلا بترخيص خاص يُمنع إعطاؤه للطلبة، وذلك بعد أن لمست قوة تأثير تونس في توجه الجزائريين. ولكن ذلك القرار لم يمنع الكثيرين من التسلل إلى تونس مشياً على الأقدام عن طريق الجبال الصعبة التي لا تصل إلى حراستها قوات المستعمر[٢]. وقد كانت تونس رافداً علمياً لأبناء الجزائر

(١) المرجع السابق.
(٢) دبوز: مرجع سابق، ٢٠.

في مراحل مبكرة، لعل من أقدمها في العصر الحديث المدة التي درس فيها الشيخ سعيد بن يوسف اليسقني الذي رجع إلى الجزائر من المعاهد التونسية عام ١٨٧٠م، وتولى التدريس في وادي مزاب. وقد وصل عدد الطلاب الجزائريين في الزيتونة وحدها عام ١٩٥٤م إلى أكثر من ألف طالب[١]؛ ولذلك كان طبيعياً أن يشعر التونسيون بمحنة الجزائر ويولوها الاهتمام والمساندة، وذلك لمكانتها التاريخية عربياً وإسلامياً، ولأواصر القربى والمصاهرة والجوار. وقد ألف المؤرخ التونسي عثمان الكعاك عام ١٩٢٠م كتابه القيم **موجز التاريخ العام للجزائر** بعد مرور نحو تسعين عاماً على احتلالها مؤصلاً عروبتها وإسلامها. وقد سُرّب هذا الكتاب إلى داخل الجزائر وقرأه أبناؤها في الداخل والخارج، ولابد أن تكون أفكار الكتاب قد ثقفت المطلعين عليه ودعّمت إيمانهم بهويتهم، وحفّزت النخبة الجزائرية على العمل من أجل قضية الوطن. أما الجزائريون المقيمون في تونس، فقد عايشوا وتفاعلوا مع الأنشطة الثقافية التي كانت تنظمها النوادي الأدبية والسياسية في **سوق الكتبية** و**مكتبة سوق العطارين** - المكتبة الوطنية حالياً و**مكتبة السرايرية** و**نادي حزب الدستور** وغيره من النوادي الناشطة في تلك الأيام، التي كان فيها المهاجرون الجزائريون أعنف خطاباً في مهاجمتهم لفرنسا سواء في كتاباتهم أم في خطبهم وأحاديثهم؛ حيث كانوا يتمتعون بحرية لا تتوفر لهم في وطنهم الأصلي.

وكما أثرت تونس ومعاهدها في نهضة الجزائر في مطلع القرن العشرين، فقد كان لمراكز علمية في بلاد أخرى تأثير مشابه بالرغم من البعد الجغرافي. حدث ذلك التأثير عبر شخصيات جزائرية تلقت تعليمها في معاهد عريقة مثل الأزهر والقرويين ومعاهد الحجاز العلمية، ثم

(١) المرجع السابق.

عادت إلى بلادها، فكان لها دور فكري وسياسي؛ من أمثال هؤلاء الشيخ الطيب العقبي[١]، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي[٢]، والشيخ العربي التبسي[٣]. ولعل أكثر البلدان تأثيراً في الجزائر بعد تونس هي مصر.

---

(١) الشيخ الطيّب العقبي (١٨٨٠ - ١٩٦٠م): تلقى تعليمه في المدينة المنوّرة، اتهمه الأتراك آنئذ بأنه يؤيد حركة الشريف حسين فنفوه إلى تركية، ومنها رحل إلى مكة؛ حيث أشرف على تحرير جريدة **القبلة**، ثم عاد إلى الجزائر وأقام في مدينته بسكرة وأنشأ فيها جريدة **الإصلاح** عام ١٩٢٦م، كان عضواً فعالاً في جمعية العلماء، واتهمته فرنسا في جريمة اغتيل فيها مفتٍ معين من قبل فرنسا، هو الشيخ كحول، وقد سجن بسبب هذه التهمة، ثمّ تغيّرت مواقفه تجاه فرنسا بعد ذلك!

(٢) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (١٨٨٩ - ١٩٦٥م): من أعظم المصلحين الجزائريين، ولد وتعلّم بسطيف، ثم واصل في مصر ومكة والمدينة، وفي عام ١٩١٧م رحل إلى دمشق وجلس للتدريس في جامعها الأموي، وكان ذا لغة مبينة ومعجم فصيح، وعلى علم بالفقه والشعر والأدب، رجع إلى الجزائر عام ١٩٢٠م ليؤسس مع عبد الحميد بن باديس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والتي كانت أهدافها وبرامجها أماني تطارحها الصديقان في أثناء لقائهما معاً في المدينة المنورة عام ١٩١٣م، وقد شغل الإبراهيمي منصب نائب رئيس الجمعية ثم تولى رئاستها بعد وفاة بن باديس، كان أديباً مفوّهاً، كتب العديد من المقالات الرصينة، والدراسات اللغوية والفقهية، وله قصيدة رجزية تبلغ ستة وثلاثين ألف بيت، وله رواية بعنوان **الثلاثة**. اختير عضواً في مجمعي اللغة العربية في القاهرة ودمشق. وقد جُمع ما كتبه في جريدة البصائر وحدها في خمسة مجلدات بعنوان **عيون البصائر**.

(٣) الشيخ العربي التبسي: وُلد بمدينة تبسّة، وفيها تلقى تعليمه الأولي، ثم درس في الزيتونة والأزهر، كان أحد أعضاء جمعية العلماء البارزين، شغل منصب أمينها العام، كما تولى إدارة معهد بن باديس الذي خرّج أجيالاً من المثقفين ذوي الثقافة العربية. في عام ١٩٥٧م، في أثناء حرب التحرير الجزائرية، اختطف الشيخ التبسي من منزله من قبل إرهابيين فرنسيين، ولم يُعرف شيء عن مصيره، ولعله استشهد على يديهم.

أثر مصر في النهضة الجزائرية

كان لابد لمصر أن تؤثر في نهضة الجزائريين بوصفها قلب العالم العربي ومركز ثقله الحضاري وتفاعله الفكري والثقافي والسياسي. وقد خففت مصر من عزلة الجزائر عن طريق ما كان يهرّب ويرسل إليها من كتب وصحف مصرية؛ ومن أشهر الصحف التي وصلت الجزائر من مصر صحيفة (**الأسد الإسلامي**) التي أصدرها في القاهرة عام **١٩٠٨**م الزعيم الليبي الشاعر والمجاهد سليمان باشا الباروني (١٨٧٠ - ١٩٤٠م)[١]. وكانت صحيفته تدعو إلى الوحدة الإسلامية والتصدي للغرب الاستعماري؛ فكان الحكم الفرنسي «يمنع وصولها إلى الجزائر، ومع ذلك كانت تصل إلى الجزائر وأنحاء المغرب الكبير فتحدث فيها ما يحدثه الأمل والحماس في النفوس من الانتعاش والطموح والجرأة»[٢]، وكان الباروني على صلة بعلماء وادي مزاب بجنوب الجزائر؛ إذ كان إباضياً

(١) سليمان باشا الباروني: وُلد في جبل نفوسة بطرابلس من أسرة ذات أصل بربري، وشغل منصب عضو في مجلس المبعوثان العثماني وشارك في الحرب الليبية ضد الإيطاليين، وأعلن مع رفاقه المجاهدين **الجمهورية الطرابلسية** التي تعد أول جمهورية عربية في التاريخ الحديث، هاجر إلى مصر وأسس فيها **المطبعة البارونية**، وأصدر جريدة **الأسد الإسلامي** ونافح عن فكرة الوحدة الإسلامية، قال الشعر وله ديوان مطبوع، كانت له علاقات مع علي باشحانبة، وعبد العزيز الثعالبي، وعبد الرحمن عزام، وطوسون باشا، وشكيب أرسلان، كان على علاقة طيبة بحكام العراق وعمان، وقد ولاه السلطان تيمور رئاسة الوزراء العمانيين، فعمل على تنظيم شؤون السلطنة بأساليب حديثة. انظر: أبو القاسم الباروني: **حياة سليمان باشا الباروني**، القاهرة، ١٩٤٨م. وإبراهيم أبو اليقظان: **سليمان باشا الباروني في أطوار حياته** (جزأين)، المطبعة العربية، الجزائر، ١٩٥٦م. وزعيمة الباروني: **صفحات خالدة من الجهاد**، مكتبة الاستقلال، ليبيا، ١٩٦٤م.

(٢) دبوز: مرجع سابق، ١١.

أيضاً، وتلقى العلم في معاهد مزاب الدينية تحت إشراف علّامة جيله الشيخ محمد بن يوسف طفيش (١٨١٨ - ١٩١٤م)[١]. كما كان على علاقة متصلة ومراسلات منتظمة مع عدد من زملائه وأصدقائه في وادي مزاب، لم تلهه عنهم مسؤولياته الجهادية والسياسية، وتنقله بين ليبيا ومصر والأستانة وسلطنة عمان. وظل الباروني على علاقة فكرية وشخصية وطيدة مع الشيخ إبراهيم أبي اليقظان الذي أرّخ للباروني وجمع رسائله وبعض قصائده وأخباره في جزأين من مؤلف بالغ الأهمية في تاريخ الباروني ووطنه والعالم الإسلامي[٢]. ولذلك لم يكن غريباً أن يتلقى الجزائريون صحيفة **الأسد الإسلامي** ويقبلوا عليها، ولا بد أن تكون قد تناولت الوضع السياسي في الجزائر وهاجمت الاستعمار الفرنسي، فأثرت في نفوس قارئيها.

ومن مصر أيضاً كانت تصل جريدة **الفتح** لصاحبها محب الدين الخطيب[٣] فتجد إقبالاً من المثقفين الجزائريين الذين أعجبوا بصراحة الخطيب وصرامته وأسلوبه المباشر الذي لا يعرف مجاملة ولا مداراة. وقد انتشرت إلى جانب هذه الصحيفة جريدة **اللواء**، فرأى المثقفون الجزائريون في مصطفى كامل (١٨٧٢ - ١٩٠٨م) بطلاً قومياً وناشطاً إسلامياً لا يتوانى عن شن هجومه على بريطانيا والمستعمرين أمثالها، فكان يعبِّر عن خلجات المصريين والجزائريين وآرائهما معاً وفي آن واحد.

---

(١) انظر ترجمته المفصلة في كتاب دبوز، ٢٨٩ - ٣٨٦.

(٢) انظر كتابه المذكور في هامش الصفحة السابقة.

(٣) محب الدين الخطيب (١٨٨٥ - ١٩٦٩م): من رجال الفكر السوريين المؤمنين بأفكار الإصلاح، عين سكرتيراً لمؤتمر باريس العربي عام ١٩١٣م، تولى رئاسة تحرير جريدة الشريف حسين **القبلة**، وبعد الحرب العالمية الأولى عمل على ترسيخ أفكار الإصلاح الإسلامي، وتولى أمانة **جمعية الشبان المسلمين** بالقاهرة؛ حيث أصدر صحيفته الشهيرة **الفتح**.

وكان الجزائريون يتابعون نشاط مصطفى كامل وحزبه، ويقرؤون خطبه وكتاباته في جريدة اللواء، ثم في أجزائها المطبوعة بعد ذلك[١]. كما كان لكتّاب آخرين مكانة عند النخب الجزائرية، أمثال فريد وجدي، وعبد العزيز جاويش، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وطنطاوي جوهرى، الذين جذبت مرجعيتهم الإسلامية العديد من القراء الجزائريين.

وفي وادي مزاب عمل الشيخ إبراهيم بيوض (١٨٩٩-١٩٨١م) على توطيد العلاقات الثقافية بمصر عبر صحفها ومطبوعاتها، فكان يتلقى صحفاً مثل **الشعلة** و**الصرخة** و**مصر الفتاة** و**الجهاد** و**الرسالة** و**المقتطف** و**الهلال**، وكان يوزعها على طلابه وأصدقائه لقراءتها والاطلاع على موضوعاتها المتنوعة[٢]، فكان ذلك يدفعهم إلى النقاش وتبادل الأفكار ويقوي نزوعهم نحو الدعوة إلى الوحدة الإسلامية الناشطة آنئذٍ. وقد فصَّل في تأثير النهضة الفكرية في مصر في اليقظة الجزائرية الشيخ محمدعلي دبوز، الذي أرّخ للحركة العلمية والفكرية في وادي مزاب على وجه الخصوص في كتابه القيّم **نهضة الجزائر وثورتها المباركة**، مشيراً إلى تجربته الشخصية قائلاً: «كنا قبل الحرب العالمية الثانية في **معهد الحياة** بأعماق الصحراء ونحن تلاميذ، نقرأ في مجلات مصر وصحفها وكتبها الدسمة ما لا يقرأ مثله كثير من أبناء النيل في الجامعة، وكنا نعرف عن كتّاب مصر وشعرائها وعلمائها وزعمائها السياسيين ما لا يعرفه كثير من تلاميذ مصر في جامعاتها»[٣].

---

(١) كانت مقالات مصطفى كامل قد طبعت تحت عنوان **مصطفى كامل في الأربعة والثلاثين ربيعاً** جمعها ونشرها شقيقه علي فهمي كامل، مطبعة اللواء، القاهرة، ١٩٠٨م، صدرت في تسعة أجزاء، أخذ الجزآن الأخيران عنوان (المسألة الشرقية) وضما مقالات مصطفى كامل السياسية.

(٢) دبوز: مرجع سابق، ٣٢.

(٣) المرجع السابق.

تشابكت هذه العناصر مجتمعة لتدعيم مصادر الثقافة العربية بين الجزائريين الذين كانت فرنسا تعمل جاهدة «على سلخهم من أمتهم وتجريدهم من هويتهم وفَرْنستهم بالكامل، كما كان لبعض الجزائريين مبادرات فردية وجماعية تهدف إلى حفظ الهوية العربية الإسلامية من التشويه، من أمثلتها تأجير أحد الشيوخ داراً في مدينة القرارة بجنوب الجزائر، وجعلها مركزاً للقراءة يوفر فيها كل ما يمكن جمعه من كتب وصحف»[١]، وقد احتفظ التاريخ الثقافي للجزائر بعناوين كتب وأسماء كُتاب كان لهم الأثر الكبير في تفكير النخبة الجزائرية، وذلك بما عالجوه من قضايا كانت تحتل بؤرة اهتمام مثقفي تلك المرحلة؛ من هذه الكتب مؤلفا عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ - ١٩٠٢م) الشهيران **أم القرى وطبائع الاستبداد**، وكتاب طنطاوي جوهري (١٨٧٠ - ١٩٤٠م) **نهضة الأمم وحياتها**، وكتابا شكيب أرسلان (١٨٦٩ - ١٩٤٦م) **لماذا تأخر المسلمون وتقدّم غيرهم وحاضر العالم الإسلامي**[٢]، كما كان هناك إقبال على كتب مصطفى الغلاييني ١٨٧٤ - ١٩٤٠م بين النخبة التي كانت تتكوّن منها بذور حركة الإصلاح في الجزائر[٣]، وقد أشار مالك بن نبي في مذكراته إلى بعض هذه الصحف والكتب، وذكر على الخصوص كتاب الكواكبي **أم القرى** الذي اطّلع عليه شخصياً مع بعض زملائه، مشيداً

(١) المرجع السابق: ٣٩.

(٢) كان كتاب **حاضر العالم الإسلامي** في الأصل ترجمة لكتاب لوثروب ستودراد المعنون بـ **عالم الإسلام الجديد**، ترجمه عجاج نويهض وطلب من شكيب أرسلان تقديمه والتعليق عليه؛ ولأن التعليقات كانت مكثفة وأطول من الترجمة، فقد صار الكتاب برمته منسوباً إلى أرسلان.

(٣) مصطفى الغلاييني: كتب في اللغة وفقهها كما كتب في الأدب وقضايا المجتمع، أكثر كتبه ملاءمة للحركة الإصلاحية الجزائرية في تلك المرحلة هو **الإسلام وروح المدنية أو الإسلام وكرومر**، طبع في بيروت عام ١٩٠٨م ثم أعيد طبعه في القاهرة عام ١٩٢٦م.

بمخيلة الكواكبي وقدرته على تشخيص الأفكار المجرّدة[١].

وقد كان أثر مصر واضحاً في نشأة الصحافة الوطنية وحركة الإحياء الأدبية في الجزائر في مطلع القرن الماضي، فلقد أتاحت الصحافة المصرية التي كانت تصل إلى الجزائر[٢]، مع كل عراقيل المستعمر وموانعه، للمثقفين المتابعين أن يطّلعوا على الصحافة بوصفها فناً وصناعة، وأن يطّلعوا على شكل المقال الذي بدأ يتبلور وينتظم في قالبه المستحدث، بفعل مؤثرات عدة ساعدت على تطور النثر العربي ونزوعه نحو السهولة والوضوح والخلوص إلى المعنى مع التحرر من أغلال البديع. كما أتاحت لهم النظر في مضامين موضوعات تلك الصحافة، مما أسهم في تغذية التوجهات الإصلاحية عند النخبة الجزائرية. ولابد أن يكون لحركة الإحياء والدعوة إلى التجديد أثرها في النهضة الأدبية التي شهدتها الجزائر فيما بعد، فلقد كان الأدباء يتابعون معارك مدرستي **الإحياء والديوان** الأدبيتين، وخاصة تلك التي جرت بين طه حسين ومصطفى صادق الرافعي، كما كان شعراء تلك المرحلة يقرؤون ويحفظون لشوقي وحافظ قصائد ولغيرهما من المبدعين[٣].

وهناك إلى جانب كل هذه العوامل عاملان آخران مهمان غذّيا النهضة الجزائرية بدرجة أعمق وأشمل يجدر الوقوف عندهما؛ وهما الإمام محمد عبده، ومجلة **المنار** الإصلاحية.

---

(١) مالك بن نبي: **مذكرات شاهد القرن**، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٤م، ٢/ ١٤٩-١٥٠.

(٢) وصل عدد الصحف التي كانت تصدر في مصر في الثلاثينيات إلى نحو المئتين ما بين جرائد ومجلات ومطبوعات فصلية، لم يصل معظمها - بالتأكيد - إلى الجزائر، ولم يكن القليل الذي يرسل أو يهرّب منتظم الوصول.

(٣) انظر: محمد ناصر: "عوامل المحافظة في الأدب الجزائري"، مجلة **الثقافة**، الجزائر، أبريل - مايو، ١٩٧٨م، ٥٣ - ٧٠.

أثر محمد عبده و(المنار)

تميز محمد عبده بتأثيره الكبير في المغرب العربي عامة، وفي تونس على وجه الخصوص؛ فقد زارها في أواخر القرن التاسع عشر بين عامي (١٨٨٤ و١٨٨٥م)، وأقام فيها أربعين يوماً، متصلاً بعلمائها، محاوراً مثقفيها. وترأس في هذه الزيارة اجتماعات تنظيمية لأعضاء **جمعية العروة الوثقى** التونسية[١]، وقد اجتذب منهجه الإصلاحي علماء الزيتونة الذين ارتبط بهم شباب **تونس الفتاة** ثم **حزب الدستور**[٢]؛ ومن ثمّ فإن أثره لابد أن يكون قد امتد إلى الطلاب والمهاجرين الجزائريين هناك.

زار عبده الجزائر عام **١٩٠٣**م ولم يبق فيها أكثر من ثلاثة أيام؛ حيث استضافه فيها واصطحبه في أرجائها الشيخ عبد الحميد بن سماية[٣] أحد رواد الإصلاح في الجزائر. ويظهر أن البعض قد بالغ في تقدير أهمية هذه الزيارة بالنسبة إلى النهضة الجزائرية؛ فقد أشار مالك بن نبي في مذكراته إلى ذلك مؤكداً أن تلك المبالغة إنما تعود إلى إغفال العوامل الذاتية لحركة الإصلاح الجزائرية، ذلك أن زيارة محمد عبده ليست إلا حلقة في سلسلة[٤]. ولا ينكر أحد أثر عبده في النخبة الجزائرية، ولكنّ هذا الأثر لا يمكن أن ينحصر في زيارة قصيرة واحدة، كما أن النهضة الجزائرية

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن زيارة عبده إلى تونس، انظر: ابن عاشور: مرجع سابق، ٥٩ - ٦٠، وكذلك: المنصف الشنوفي: "مصادر رحلتي محمد عبده إلى تونس" ، **حوليات الجامعة التونسية**، عدد ٣، ١٩٦٦م.

(٢) عبد الله الطاهر: **الحركة الوطنية التونسية، رؤية شعبية قومية جديدة (١٨٣٠ - ١٩٦٥م)**، مكتبة الجماهير، ليبيا، ١٩٧٦م، ٣٢.

(٣) عبد الحميد بن سماية (١٨٦٦ - ١٩٣٣م): كان أستاذاً في المعاهد الفرنسية العربية، درّس فلسفة الغزالي وأفكار محمد عبده الذي نزل ضيفاً عليه في أثناء زيارته القصيرة للجزائر عام ١٩٠٣م.

(٤) مالك بن نبي: **المذكرات**، ١٠٧.

التي كانت تختمر بفعل عدة عوامل ذاتية وموضوعية لم تكن لتغيب أو تتأخر إذا لم تحدث مثل تلك الزيارة. والمتمعن في التاريخ الثقافي المعاصر للجزائر يلاحظ أن حركتها الإصلاحية قد بدأت قبل تلك الزيارة بمدة طويلة، وذلك منذ أن أعلن العلماء انخراطهم في نموذج التفكير السلفي الذي كان آنذاك في عنفوانه في المشرق العربي، والذي أدت إلى تبنيه وتطويره عوامل داخلية جزائرية. من هذه العوامل تميز المغرب العربي عن المشرق العربي بتناغمه العقيدي؛ فجميع سكانه مسلمون، في حين توجد في المشرق نسبة من المسيحيين. ولا تعد الأقلية اليهودية المقيمة في بلدان المغرب من السكان الأصليين؛ وهو أمر يعززه انفصالهم عن أهل البلاد العرب والبربر. وفي الأدبيات التاريخية والأثنوجرافية الفرنسية يسمى الجزائريون بالمسلمين الجزائريين (Les Algériens muslmans)، في حين يشار إلى كل من التونسيين والمغاربة بصفتهم الوطنية دون الدينية. ولعل مرد ذلك أن جميع الحركات التي قامت في الجزائر ضد الفرنسيين كانت تستند على الإسلام، حتى إن بعض الدراسات تذهب إلى أن تيار الوحدة الإسلامية قد ولد في الجزائر عند احتلالها عام ١٨٣٠م، في حين لم يعرفه المشرق إلّا في أواخر القرن التاسع عشر؛ ذلك أن احتلال الجزائر كان أول مواجهة من نوعها في التاريخ الحديث بين المسلمين والغربيين، وأن الجزائريين كانوا أول من نادى بالتضامن الإسلامي والإصلاح الديني والاستفادة من التجربة الأوربية[١].

وحين تبنّت حركة الإصلاح الجزائرية المسار السلفي، فإنها قد مهّدت لأفكار محمد عبده أن تدرّس وتناقش وتتداول بين المثقفين. وكان من بين القنوات التي حملت أفكار المفتي المصري ونشرتها (**مجلة المنار**)، التي كان يحررها صنوه وزميله محمد رشيد رضا (١٨٦٥ -

(١) أبو القاسم سعد الله: **الحركة الوطنية**، ١٢٩ - ١٣٣.

١٩٣٥م)، وكانت هذه المجلة منتشرة في تونس، حيث درس وأقام المهاجرون الجزائريون، وكان العدد الواحد من **المنار** يطوف على عدد كبير من القراء، مما يدلّ على مكانتها وحرص المثقفين على قراءتها وتتبع موضوعاتها[١]، وقد أشار دبوز إلى مكانة المجلة في نفوس النخبة الجزائرية بقوله: «كان المثقفون بالعربية في الجزائر يقرؤونها كلها، ويعيدون قراءتها على إخوانهم المرات الكثيرة (...) وكانت الجزائر ترى **مجلة المنار** لسان الإسلام الأكبر، ومنبر الإصلاح الأعظم (...) وكان زعماء النهضة كلهم يقرؤون فصولاً من **المنار** في نواديهم ومجالسهم للجماهير، ويوجهون تلاميذهم وأنصارهم إليها»[٢]، وفي بعض الأعداد أظهرت **المنار** اهتمامها بالقضية الجزائرية وبالسياسة الفرنسية حتى إن زعماء النهضة أمثال الشيخ عبد الحليم بن سماية والشيخ عبد القادر المجاوي والشيخ محمد بن مصطفى كانوا «يرجون من الشيخ رشيد رضا ألا تتدخل **مجلة المنار** في السياسة فتتعرض لفظائع فرنسا في المغرب والشام لكي لا تقطعها عنهم»[٣]، كما كانت تعليمات عبده للمنار أن تبدي المجلة الود تجاه فرنسا ولا تهاجمها، حتى لا تمنع دخول المنار وأفكار عبده إلى كل من تونس والجزائر[٤].

وقد انتشرت آراء عبده الإصلاحية كذلك عن طريق كتابه (**رسالة التوحيد**) الذي كان مرجعاً أساسياً للعلماء والمعلمين في مختلف المعاهد، ممن اعتنقوا أفكار عبده وتبنوا منهجه في تفسير القرآن وربطه بواقع العصر[٥]، ثم ما لبثت (**رسالة التوحيد**) أن ترجمت إلى الفرنسية

(١) بن عاشور: مرجع سابق، ٧٩.
(٢) دبوز: مرجع سابق، ٢٨ - ٢٩.
(٣) المرجع السابق.
(٤) بن عاشور: مرجع سابق، ٧٥.
(٥) ذكر دبوز أن الشيخ بيوض؛ أستاذه في معهد الحياة بمزاب، كان يدرّسهم **رسالة** =

وأصبحت متوفرة للمثقفين بهذا اللسان، وقد أشار إليها مالك بن نبي في مذكراته، وأشاد بأثرها في توجهه الفكري[١]. وكانت أفكار عبده بالغة الانتشار بين المثقفين بالعربية، يتناولونها في دروسهم ومناقشاتهم وكتاباتهم، وهو ما دفع الشيخ محمد دبوز إلى المقارنة بين أثر محمد عبده في المشرق العربي وأثره في الجزائر معتقداً «أن أثر محمد عبده انحصر في المشرق في الخاصة، ولم يتسرب إلى العامة إلّا قليلاً، أما في الجزائر فحتى العامة تأثرت بالشيخ محمد عبده؛ لأن كتب الشيخ هي عماد وعّاظها، وكتابه في التفسير هو سناد مدرّسيها، وكان اسمه يُذكر في الخطبة الواحدة وفي الدرس الواحد مراراً، فعرفته العامة، وعرفت مذهبه في الإصلاح»[٢]. وفي الثلاثينيات كان عبد الحميد بن باديس يقتبس آراء عبده التي تصدر في مجلة **المنار** ويعيد نشرها في مجلته **الشهاب**[٣] وتبعتها في ذلك صحف أخرى مثل **المغرب** و**الفاروق** التي اعتبرت عبده «رقيبها الديني»[٤]، وقد انتقل أثر عبده بعد ذلك من الأشخاص والصحف إلى المؤسسات، كما سنرى في بحث أثره في **جمعية العلماء المسلمين** التي كانت ركناً من أركان النهضة الجزائرية.

= **التوحيد**، كما أن منهجه في تفسير القرآن كان منهج عبده نفسه، وكان يذكر لتلاميذه أن هدفه هو هدف عبده نفسه؛ وهو خلق «عقول يمكنها أن تتذوق بلاغة القرآن، ونفوس فيها طهر القرآن، وتلاميذ مصلحين يكونون جند القرآن»، انظر: دبوز: ٣٠.

(١) بن نبي: **المذكرات**، ١٠٧.

(٢) دبوز: مرجع سابق، ٣١.

(٣) رشيد الذوادي: **رواد الإصلاح**، دار المغرب العربي، تونس، ١٩٧٣م، ١١٣.

(٤) المرجع السابق.

ظهور الصحافة الوطنية

أكّدت عدة دراسات عربية وفرنسية وإنجليزية أن ظهور الصحافة الوطنية في الجزائر كان عاملاً رئيسياً في نهضة الجزائر الفكرية والاجتماعية والسياسية[١]، وقد أبرزت هذه الدراسات أهمية هذه الصحافة في ذلك الزخم النهضوي الذي شهدته البلاد في مطلع القرن العشرين، وبالتحديد بعد الحرب العالمية الأولى، إذ كانت الصحافة قبل ذلك محتكرة من قبل المعمّرين[٢]. أما بعد تنامي الوعي القومي، وظهور نخبة جديدة مزدوجة الثقافة تمكنت من الاطلاع على صحافة المشرق وتأثرت بها، فقد أصبح المثقفون الجزائريون يحسون بالحاجة الماسة إلى إنشاء صحافة أهلية تعبّر عن الجزائر وظروفها الراهنة وقضاياها الملحة. وعندما تأسست هذه الصحافة حملت رسالة بالغة الأهمية؛ فقد غذّت اعتزازاً جديداً بالنفس بدأ ينتشر بين الناس، وكانت أداة لإحياء لغة جديرة بالارتقاء ورد الاعتبار؛ مما أدى إلى إحياء الفصحى، وظهور إبداعات أدبية وبحوث تاريخية قيمة[٣].

من الجرائد الأولى التي ظهرت في هذه المرحلة **كوكب إفريقيا** التي أصدرها محمود كحّول عام **١٩٠٧م**، و**الجزائر** التي أصدرها عمر راسم لمدة قصيرة عام **١٩٠٨م**، و**الفاروق** التي أصدرها عام **١٩١٣م** عمر بن

---

(١) انظر: محمد ناصر: **الصحافة العربية في الجزائر** (١٨٤٧ - **١٩٣٩م**)، الجزائر، **١٩٨٠م**. وبالفرنسية انظر:

Ihaddaden Zahir, **Histoire de la Presse Indigéne en Algérie Jusqu'en 1930,** Alger, 1983. Ali Merad, "la formation de la Presse musulmane en Algérie (1919 - 1939)" IBLA, 1st trimester, 1964, P.P. 9 - 21.

(٢) أبو القاسم سعد الله: **الحركة الوطنية**، ١٣٦.

(٣) علي مراد: مرجع سابق، ١٣٠.

قدُّور[١] «وكانت أول جريدة جزائرية منتظمة الصدور»[٢] ومع أن معظم هذه الصحف لم تعش طويلاً، فقد مثّلت المبادرات الأولى التي مهدت طريق الصحافة الجزائرية. وقد أشار علي مراد في دراسته المستفيضة بالفرنسية عن هذه الصحافة، إلى أنها، بنوعيها العربي والفرنسي، كان ينقصها الاتحاد؛ إذ أضعفتها الخلافات السياسية والاجتماعية والمذهبية، مؤكداً أن الصحافة الجزائرية المسلمة لم تتأسس أصولها الحقيقية إلا بعد العقد الأول من القرن العشرين[٣].

وكان طبيعياً أن تواجه الصحافة العربية في الجزائر صعوبات متنوعة؛ أولها ارتفاع نسبة الأمية بين الشعب، إذ اعتبر القانون الاستعماري العربية لغة أجنبية في أرضها، بالإضافة إلى تشدد جهاز الرقابة الرسمي على ما تنشره هذه الصحف، إضافة إلى قلة دور الطبع. وقد أرغمت هذه الظروف العديد من الصحف على التوقف وخاصة في العقدين الأولين من القرن العشرين؛ فقد أوقفت السلطات الاستعمارية جريدة **ذو الفقار**، التي كان يحررها ويرسم صورها ويطبعها صاحبها عمر راسم، وذلك بعد عام واحد من صدورها، وقد قُبض على صاحبها وقُدم إلى محاكمة عسكرية وحكم عليه بالأشغال الشاقة[٤]، ولعل السبب وراء ذلك هو أن راسماً كان متشبعاً بآراء محمد عبده، معجباً بشخصيته، حتى اعتبره مدير الجريدة الديني، وكتب في عددها الأول أن الجريدة «عبدوية إصلاحية»[٥].

---

(١) ذكر فيليب طرازي أن بن قدور كان من أكثر الكتاب الموهوبين في الصحافة الجزائرية، انظر كتابه: **تاريخ الصحافة العربية**، بيروت، ١٩١٤م، ٣/ ٢٤٠.

(٢) دبوز: مرجع سابق، ٨.

(٣) علي مراد: مرجع سابق، ١٨.

(٤) دبوز: مرجع سابق، ٨.

(٥) محمد ناصر: مرجع سابق، ٤٠.

ومع أن الرقابة الاستعمارية الصارمة كانت شديدة على الصحافة الجزائرية وقامت بإقفال عدة صحف، أو اضطهاد أصحابها وملاحقتهم، فقد كان هناك تصميم قوي على المضي في طريق إصدارها، بل على أن تكون رافداً لنهضة البلاد الفكرية والسياسية. ومن أكثر هذه الصحف تأثيراً في النهضة صحيفة **الإقدام** التي كان يصدرها الأمير خالد الجزائري (١٨٧٥ - ١٩٣٦م)، حفيد الأمير عبد القادر، باللغتين العربية والفرنسية، وقد كانت هذه الصحيفة دعماً للحركة المناهضة للاستعمار التي تبلورت بعد الحرب العالمية الأولى. واكتسبت **الإقدام** شهرتها وتأثيرها من سمعة الأمير خالد وشخصيته ومواقفه، ومع أنه قد ولد بدمشق ودرس في سورية وفرنسا، فقد حافظ على انتمائه إلى وطنه الأصلي ووشائجه التي تربطه مع شعبه، فاستطاع بذلك - وبوصفه عسكرياً - أن يؤدي دوراً بارزاً في تطور الحركة الوطنية الجزائرية، فقد ذهب في شهر أيار/ مايو **١٩١٩**م بصحبة أربعة آخرين إلى باريس لحضور مؤتمر السلام الذي حضره الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون صاحب فكرة حق تقرير المصير، قاصداً من ذلك لفت انتباه الرئيس الأمريكي إلى القضية الجزائرية للضغط على الحكومة الفرنسية[١]، وقد كان لمبادرته الجريئة هذه ولمواقفه الشجاعة الأخرى التي عكستها موضوعات **الإقدام** أكبر الأثر في نفوس شباب تلك الحقبة، وعلى رأسهم مالك بن نبي الذي أشار في مذكراته إلى الصحيفة، التي كان يواظب مع زملائه على قراءتها[٢].

وقد ظهرت في العشرينيات عدة صحف أخرى في مناطق متعددة، مؤسسة لحركة ثقافية وطنية، ومبرزة وجهة النظر الجزائرية للفرنسيين

(1) Ali Merad, **la Reformism Musuluman en Algérie de 1925 - 1940,** Paris, 1967, P. 39.

(٢) بن نبي: **المذكرات**، الجزء الأول.

والعالم، ومعبرة عن معاناة الجزائريين ومطالبهم. ولهذه الأسباب ظلت هذه الصحف تواجه التعطيل والإقفال من قِبَل الإدارة الاستعمارية، ولكنّ إصرار أصحابها كان يجعلهم يصدرون صحفاً غيرها لخدمة الأهداف نفسها، ففي المدة الواقعة ما بين عامي **١٩٢٦** و**١٩٣٨**م مثلاً أصدر الشيخ إبراهيم أبو اليقظان ثماني صحف متتابعة، كان في جميعها ينافح عن الإسلام وعن حقوق الجزائريين ودول المغرب العربي في استقلالهم والحفاظ على هويتهم[١]. ومن أعظم الصحف أثراً في الثلاثينيات تلك التي أصدرتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[٢]؛ إذ كوّنت تياراً ثقافياً إصلاحياً وصلت به الصحافة العربية عموماً في مرحلة ما بين الحربين إلى درجة من النضج دفعت بالنخبة ذات الثقافة العربية إلى مقدمة العمل الثقافي والوطني والإصلاحي، فأسهمت إسهاماً كبيراً في رفع درجة الوعي ودفع جهود النهضة.

وقد تبعت ظهور الصحافة إنجازات ثقافية أخرى، وخاصة في عقد معين من الزمان وهو العقد الواقع بين **١٩٢٢ - ١٩٣٢**م؛ منها تأسيس **المطبعة الجزائرية الإسلامية** بقسنطينة، التي أسسها بن باديس، و**المطبعة العربية** بالجزائر التي أسسها أبو اليقظان؛ وهو ما ساعد على ظهور أكثر

---

(١) كانت عناوين صحف أبو اليقظان الثمانية هي: **وادي مزاب**، **مزاب**، **المغرب**، **النور**، **البستان**، **النبراس**، **الأمة**، **الفرقان**. حول نشاط أبو اليقظان الصحفي انظر: دبوز: مرجع سابق، ٩ - ١٠، وعبد الملك مرتاض: "نضال الصحافة العربية في الجزائر قبل الثورة"، مجلة **الثقافة**، يونيو - يوليو **١٩٧٧**م، ٦.

(٢) أصدرت جمعية العلماء خمس صحف؛ هي **السنة** عام **١٩٣٣**م، التي أوقفت بعد ثلاثة شهور، و**الشريعة** التي عاشت واحداً وأربعين يوماً فقط، و**الصراط السوي** (**١٩٣٣** - **١٩٣٤**م)، و**البصائر** في عهدها الأول (**١٩٣٠** - **١٩٣٩**م) حين توقفت ثم عادت إلى الصدور (**١٩٤٧** - **١٩٥٦**م) وقد قال الإبراهيمي في دلالة عناوين هذه الصحف: «أسماء ألهم القرآن استعمالها، وفصلت القرائح الملهمة والأقلام المسدّدة إجمالها، وصدّق واقع العيان فألها».

من عشر صحف عربية مؤثرة في ذلك العقد وحده، كما تأسس في العقد نفسه **نادي الترقي** بالجزائر[١].

ومن إنجازات تلك المرحلة ظهور كتب بالعربية لكتاب جزائريين تبحث في تاريخ البلد وجذوره الحضارية، ومع أن هذه المؤلفات كانت موجهة إلى الجزائريين بالدرجة الأولى لتذكرهم بماضيهم وتؤكد هويتهم، فإنها كانت أيضاً رد فعل على الخطة الاستعمارية التي شوهت الحقائق وألحقت تاريخ الجزائر بتاريخ فرنسا. فقد أصدر أبو القاسم الحفناوي، وهو مؤرخ ومعلم وصحفي، كتابه الموسوعي **تعريف الخلف برجال السلف** عام **١٩٠٧**م، أرّخ فيه لحياة عدد من عظماء الجزائر، مبرهناً على أن للجزائر تاريخاً وطنياً يُفتخر به ويُتطلع إليه. كما صدر من قبل؛ أي في عام **١٩٠٣**م، كتاب آخر بعنوان **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر** للأمير عبد القادر يضم وثائق تاريخية مهمة[٢]. ومن المؤكد أن الكتابين قد قُرئا من قبل النخبة الجزائرية وأسهما في نشر الوعي الوطني.

وقد أدّت هذه الأنشطة الثقافية إلى إنشاء عدد من النوادي والجمعيات الثقافية والاجتماعية، مما يدل على زيادة التفاعل بين أفراد المجتمع ونخبه. وقد كانت هذه الجمعيات تُستخدم مدارسَ ومراكزَ اجتماعية للمساعدات الخيرية والأنشطة الرياضية والكشفية، وكذلك مراكزَ قيادية للجماعات السياسية[٣]، ومن أمثلة هذه النوادي **الجمعية التوفيقية** التي تأسست عام **١٩٠٨**م، و**نادي صالح بيه** في قسنطينة، و**جمعية الراشدية** في

---

(١) عبد الملك مرتاض: **الثقافة العربية في الجزائر بين التأثير والتأثر**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨١م، ١٢٦.

(٢) ورد عنوان هذا الكتاب ضمن مراجع رافائيل دانزيجر (Raphael Danziger). **الأمير عبد القادر والجزائريون**: (بالإنجليزية)، نيويورك، ١٩٧٧م.

(٣) سعد الله: **الحركة الوطنية**، ١٥٩.

الجزائر[١]. وقد عقدت هذه الجمعيات العديد من المحاضرات والندوات لتوعية الناس ومناقشة مفاهيم جديدة مثل الحقوق العامة والإصلاح والتقدم. واللافت للنظر أن لأسماء النوادي معاني نهضوية كما نلاحظ في: **نادي التقدم**، و**نادي الاتحاد**، و**نادي الشباب الجزائري**، و**وداية العلوم الجديدة**. ولعل أنشطهم جميعاً كان **نادي الترقي** الذي يعد أحد أسس النهضة في بداية القرن العشرين. وكان من ضمن مؤسسي هذا النادي أحمد توفيق المدني (١٨٩٩ - ١٩٨٣م)[٢] الذي كان عضواً نشطاً في **حزب الدستور التونسي** في أثناء إقامته في تونس، ثم عضواً في الحكومة الجزائرية المؤقتة التي تأسست في المنفى إبان حرب التحرير الوطني، إلى جانب كونه شاعراً وكاتباً ومؤرخاً. وقد أسهم **نادي الترقي** في نشر الثقافة العربية في الجزائر وإنمائها. ولا غرابة أن يلاحظ مالك بن نبي عند عودته من فرنسا في صيف ١٩٣٠م أن اللافتة التي تحمل اسم النادي كانت اللافتة الوحيدة المكتوبة باللغة العربية في العاصمة الجزائرية[٣].

تطور الحركة السياسية

كان طبيعياً أن تؤدي اليقظة الثقافية والاجتماعية في المجتمع الجزائري إلى يقظة سياسية ووطنية، كان أول مظاهرها مبادرة النخبة

(١) المرجع السابق.

(٢) لمزيد من التفصيلات عن نشاط النادي، ونشاط أحمد توفيق المدني، عضو الحكومة الجزائرية المؤقتة في الخمسينيات، انظر مؤلفه التأريخي والأدبي **حياة كفاح**، وتجدر الإشارة إلى أن بعض المصادر الأخرى تخالف ما أشار إليه المدني عن رئاسته للنادي، مؤكدين أن الرئاسة تولتها لجنة من الموسرين ومعهم الشيخ الطيب العقبي الذي كان أحد أنشط أعضاء النادي.

(٣) بن نبي: **المذكرات**، ج٢، ٨٢.

المثقفة بالفرنسية إلى إنشاء حزب سياسي أسمته **الشبان الجزائريون - Les Jeunes Algériens** بهدف إحداث تغيير إيجابي في الواقع الجزائري. وقد كان هؤلاء مخدوعين بمبادئ الثورة الفرنسية وأفكارها الديمقراطية، فظنوا أن بإمكانهم تعاطي تلك الأفكار داخل وطنهم. ولكنهم عندما تقدّموا إلى الإدارة الفرنسية طالبين حق التمثيل السياسي للأهالي الجزائريين، رُفض طلبهم بدعوى أن المسلمين غير مؤهلين بعد لممارسة الانتخاب[١]. ومع أن طلبهم هذا رُفض فقد رحّب **الشباب الجزائريون** بقانون **١٩١١**م لتجنيد الجزائريين إجبارياً، في الوقت الذي عبّر فيه الشعب عن رفضه الكامل له، وكان أقوى تعبير عن هذا الرفض تلك الهجرة الجماعية التي خرجت من تلمسان في قافلة قوامها ثمان مئة مواطن دفعة واحدة[٢]، مما أثار نقاشاً وجدلاً في الصحافة الفرنسية.

في الحرب العالمية الأولى جنّدت فرنسا مئة وسبعين ألف جزائري في جيشها[٣]، وبعد انتهاء الحرب احتاجت إلى أيد عاملة لإعادة بنائها، فشُجع عدد كبير من الجزائريين على عبور البحر لينضموا إلى آخرين سبقوهم لملء مكان العمال الفرنسيين الذين جنّدوا للحرب، كما بقي الجزائريون الذين جُنّدوا في الجيش الفرنسي في فرنسا بعد انتهاء الحرب ليتحولوا إلى عمال. وقد عاشت هذه المئات من الآلاف في فرنسا، واطلعوا على مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية فيها، وتفتح وعيهم على أفكار ومفاهيم جديدة، مما جعلهم يقارنون بين حياتهم الصعبة في الجزائر، وحياة الفرنسيين الكريمة في بلدهم، وهو ما حفّزهم إلى محاولة تغيير أوضاعهم وأوضاع مواطنيهم الجزائريين.

---

(1) Vencent Confer, **France and Algeria,** Syracause University Press, 1966, P. 72.

(2) Joan Gillespie, **Algeria: Rebellion and Revolution,** Paeger, N.Y. 1962. P. 32.

(3) Jamil Abun Nasr, **A History of the Maghrib,** Cambridge Press, 1971, P.317.

إن نمط العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الذي ربط بين الفرنسيين والجزائريين، سواء في الجزائر أم في فرنسا، قد جعل الجزائريين يقارنون بين نظريات الفرنسيين وأفكارهم، وبين ممارساتهم وتطبيقاتهم العملية، ليكتشفوا أن مبادئ الحرية والعدل والمساواة التي بشّر بها الفرنسيون لا وجود لها إطلاقاً في الجزائر المستعمرة، ولذلك فإن النقاش بين الجزائريين لم يكن يدور حول الأسلمة والفرنسة فقط، وإنما كذلك حول ما تقوله فرنسا الثورة وتدعيه، وما تفعله وتمارسه. وقد أدى ذلك إلى ظهور تيارين رئيسيين مهّدا لإنشاء الأحزاب والنهضة السياسية؛ سمي الأول بالنخبة المحافظة أو التقليدية، وسمي الآخر بالنخبة الحديثة أو العصرية.

تزعمت المحافظين شخصيات ذات ثقافة دينية ونزعة إسلامية من أمثال عبد الحميد بن سماية، وعبد القادر المجاوي[١] والمولود بن موهوب[٢]، وغيرهم، وقد دعا هؤلاء إلى إسلامية الجزائر وعروبتها، وإلى الحفاظ على هويتها الحضارية. وكان بن موهوب أحد أساتذة

(١) الشيخ عبد القادر المجاوي (١٨٤٨ - ١٩١٤م): من رواد الإصلاح الجزائري، كان والده من كبار العلماء في عصره، تولى القضاء خمسة وعشرين عاماً قبل أن ينتقل إلى المغرب ويجلس للتدريس في جامع القرويين، تعلم عبد القادر في تلمسان وتطوان وفاس (القرويين)، وعندما عاد إلى وطنه درّس في مدرسة الثعالبية بقسنطينة؛ حيث درّس تلاميذ مثل الشيخ الونيس والشيخ بن موهوب، كان يتقن الفرنسية ويجادل المستشرقين، ويحارب البدعة والخرافة. لمزيد من التفصيلات انظر: دبوز: مرجع سابق، ٨٢ - ١٠٤.

(٢) الشيخ مولود بن موهوب (١٨٦٣ - ١٩٣٠م): ولد وتعلم في قسنطينة، تتلمذ على الشيخ المجاوي ولازمه اثنتي عشرة سنة، وعندما انتقل الأستاذ إلى مدينة الجزائر، تولى التلميذ مكانه العلمي في قسنطينة، ودرّس الدين والفلسفة في المدرسة الفرنسية الجزائرية، كذلك جلس للتدريس بالجامع الكبير بقسنطينة، وتولى الإفتاء المالكي، وأسس مع غيره **نادي صالح باي** الثقافي وألقى فيه عدة محاضرات أدبية واجتماعية.

مالك بن نبي في مرحلته الدراسية المتوسطة بقسنطينة في العشرينيات، وإلى أفكاره التقدمية أرجع بن نبي فضل انخراطه في حركة الإصلاح الجزائري. وقد كان هذا التيار رافضاً لسياسة الإدماج الفرنسية، وللقوانين التعسفية التي تُسن ضد الأهالي، وعلى رأسها قانون التجنيد الإجباري.

أما النخبة الحديثة التي كانت ذات ثقافة فرنسية فقد اتخذت موقفاً مغايراً من موضوع الهوية؛ إذ قبل أعضاؤها مبدأ الاندماج باعتباره طريقاً لتحقيق المساواة وخاصة في مجالي التعليم والحقوق السياسية، وهو ما جعل معظم الجزائريين ينظرون إليهم على أنهم خونة، في حين كانوا هم يعدون أنفسهم ثوريين استناداً إلى اعتقادهم بأنه في حالة قبول المعمرين بمطلب المساواة، فإن أولئك المعمرين سوف يذوبون تاريخياً في الجزائر «الفرنسية المسلمة»[١].

أما أول الأحزاب التي ظهرت في تلك المرحلة فهو (**نجم شمال إفريقيا**) الذي أسس في فرنسا عام **١٩٢٦**م[٢]، وضم العمال الجزائريين وخاصة عمال المصانع، وذلك تحت إشراف الحزب الشيوعي الفرنسي، وكان مصالي الحاج (١٨٩٨ - ١٩٧٧م)، الذي سمي فيما بعد بأبي الوطنية الجزائرية، أبرز مؤسسي هذا الحزب.

كان مصالي ابن صانع أحذية لم يتلق إلا تعليماً بسيطاً في طفولته؛ أما في شبابه فقد انخرط في الجيش الفرنسي الذي خاض الحرب العالمية الأولى، ثم رجع إلى الجزائر عام **١٩٢٤**م فلم يتمكن من الحصول على

---

(١) أبو النصر: مرجع سابق، ٣١٧.

(٢) جوليان: مرجع سابق، ١١٧، تذكر مصادر أخرى أن الحزب أنشىء عام **١٩٢٤**م، في حين تتبنى أغلبية المصادر عام **١٩٢٦**م، وربما جاء هذا الاختلاف من أن مؤسس التنظيم الأصلي هو الأمير خالد الذي بدأه عام **١٩٢٤**م بعد نفيه إلى فرنسا، وفي عام **١٩٢٦**م أصبح مصالي الحاج أميناً عاماً للتنظيم، وصار زعيمه منذ ذلك التاريخ وحتى الاستقلال.

عمل، فعاد إلى فرنسا، والتحق بجامعة بوردو[١]، ثم تزوّج بفرنسية كانت عضواً في الحزب الشيوعي الذي التحق بعضويته هو أيضاً[٢]. ومثل أغلبية العمال الجزائريين واجه مصالي الحاج ظروفاً معيشية صعبة، فانخرط في الصراع الذي كانت تخوضه الطبقة العاملة في فرنسا. وعندما أسس (**نجم شمال إفريقيا**) جعل هدفه الأول «الدفاع عن مصالح مسلمي شمال إفريقيا المادية والمعنوية والاجتماعية» وكذلك «تعليم أعضاء المنظمة»[٣]، لكنَّ الحكومة الفرنسية لم تلبث أن حلّت في عام **١٩٢٩**م هذه المنظمة العمالية الجزائرية لأنها نادت باستقلال الجزائر؛ مما حدا بأعضائها - الذين تزايد عددهم - إلى تحويل نشاطهم إلى عمل سريّ؛ الأمر الذي جعل فرنسا توجه لمصالي الحاج تهمة محاولة إعادة بناء منظمة محلولة وتحكم عليه بالسجن. لكنّ مصالي نجح في عام **١٩٣٧**م في أن يعيد فعلاً بناء منظمته العمالية تحت اسم جديد هو (**حزب الشعب الجزائري**).

جذبت شخصية مصالي الحاج الشعبية البسيطة عدداً كبيراً من العمال والطلاب الذين عاشوا في باريس في الثلاثينيات من القرن العشرين، وكان من بين هؤلاء مالك بن نبي، الفتى الوطني المتحمس الذي كان في العشرينيات من عمره والذي عرف مصالي وتعاون معه مدة قصيرة أشار إليها في مذكراته قائلاً إنه كان ضد ذلك النمط من الزعامة الذي جسده مصالي[٤]، وهو عكس ما رآه آخرون من أن مصالي كان زعيماً وطنياً فاعلاً، وأنه منح حزبه صفة العمالية والثورية والوطنية، كما أنه أعطاه أيضاً ملامح من الحركة الإسلامية[٥]. وقد رأى البعض أن وصف حركة

---

(١) جلسباي: مرجع سابق، ٤٠.

(2) W. Quandt, **Revolution and Political Leadership,** MIT Press, 1969, P. 38.

(٣) جلسباي: مرجع سابق، ٤٠، وجوليان: مرجع سابق، ١١٧.

(٤) انظر: بن نبي: **المذكرات**، ج٢، ٦٦ - ٧٣.

(5) Gerald Mansell, **Tragedy in Algeria,** Oxford University Press, London - N.Y., 1961, P. 40.

مصالي بالإسلامية أمر مبالغ فيه[١]، فهو لم يتحول من كونه مناضلاً اشتراكياً إلى مناضل (إسلامي) إلّا في منتصف الثلاثينيات، وقد جاء هذا التحول بتأثير من الأمير شكيب أرسلان، الذي أسهم في تطوير الوعي القومي والإسلامي في شمال إفريقيا عبر علاقاته الوطيدة مع شخصيات مغاربية بارزة[٢]، وقد أثر أرسلان في تفكير مصالي الحاج بعد لقائهما في جنيف حيث كان أرسلان يشن حملاته المتّصلة على الاستعمار الغربي عبر منبره الصحفي **الأمة العربية** - **La nation arabe** التي دعا فيها إلى الوحدة العربية، ومحاربة الهجمة الاستعمارية، بعد أن يئس من عودة الروح إلى جسم الخلافة الإسلامية[٣].

وخلال الثلاثينيات أيضاً برزت على المسرح السياسي نخبة من المثقفين الجزائريين الذين رأوا أنّ من حقهم تمثيل المسلمين في الهيئات المحلية المنتخبة، وذلك بعد أن أسسوا منظمة أسموها بـ (**فدرالية المنتخبين المسلمين**)، وقد أطلق على هذه النخبة اسم (**الطليعة** Evolues) وكان أعضاؤها يؤمنون بالاندماج الكامل في فرنسا والانخراط في ثقافتها بالكامل، ما عدا ما يتعلق بالأحوال الشخصية والشؤون العائلية. وقد ترأسهم طبيب من خريجي الجامعة الفرنسية هو الدكتور بن جلّول ومعه فرحات عباس الذي اشترك في الحرب العالمية الثانية وقد تخرّج من كلية الصيدلة عام ١٩٣٠م.

كان فرحات عباس مثال المثقف الجزائري المتغرّب الذي آمن بفرنسا

---

(1) Willian Cleaveland, **Islam Against the West, Shakeeb Arsalan and the Campaign for Islamic Nationalism,** University of Texas Press, 1985, P. 90.

(٢) جوليان: مرجع سابق، ٢٢.

(٣) حول نشاط أرسلان في المشرق والمغرب العربيين انظر: كليفلاند: مرجع سابق، ومحمد شفيق شيا: **شكيب أرسلان: مقدمات الفكر السياسي**، بيروت، ١٩٨٣م.

وأيّد الاندماج فيها، مصرّحاً في بعض كتاباته بأنه «لم يبق لهذا البلد شيء سوى اندماج العنصر الجزائري وانصهاره في المجتمع الفرنسي»[١]. وقد ذهب إلى أكثر من هذا حين أنكر فكرة الوطن الجزائري في مقالة نشرت عام **١٩٣٦**م في إحدى الصحف الصادرة بالفرنسية، بعنوان «فرنسا.. هي أنا» قال فيها: «لو كنت اكتشفت الوطن الجزائري لكنت وطنياً، ولما احمرّت وجنتاي خجلاً كأنها جريمة، فالذين ماتوا من أجل فكرة وطنية يكرّمون ويحترمون كل يوم؛ وليست حياتي أثمن من هؤلاء. ولكنني لن أموت من أجل وطن جزائري لأن هذا الوطن لا وجود له. لقد سألت الأحياء والأموات، وزرت المقابر، فلم يكلمني عنه أحد (...) إننا أبناء العالم الجديد صنعنا العقل الفرنسي والقدرة الفرنسية»[٢].

وقد أثار هذا الكلام كثيراً من الجزائريين داخل البلاد وخارجها. وفي فرنسا صدمت هذه العبارات مفكرنا مالك بن نبي وزملاءه وأثارت ردود أفعاله كما سنذكر لاحقاً؛ أما في قسنطينة فقد دبج الشيخ عبد الحميد بن باديس، رئيس جمعية العلماء المسلمين، مقالاً ردّ به على عباس فرحات، ونشره في **الشهاب** قال فيه: «إننا نحن كذلك بحثنا في التاريخ الماضي والحاضر، وتأكدنا من أن أمة جزائرية مسلمة قد وجدت ومازالت موجودة (...) إنّ هذه الأمة ليست هي فرنسا، ولا تستطيع أن تكون فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة كل البعد عن فرنسا، في لغتها، وفي أخلاقها، وفي عنصرها، وفي دينها»[٣].

ومع الأيام غيّر فرحات عباس أفكاره ومواقفه حينما لم يجد،

---

(١) وردت في كتاب: جلسبان: ٤٨.

(٢) راجع الأصل الفرنسي في: جوليان: مرجع سابق، ١١٠ - ١١١، وانظر الترجمة الإنجليزية في: جلسبان: المرجع السابق.

(٣) عمار طالبي: **بن باديس: آثاره وحياته**، الجزائر، ١٩٦٦م، ٣٠٦/٢.

وأمثاله، تفهماً أو تجاوباً من فرنسا. وقد أنضجته بعد ذلك تجاربه سياسياً وفكرياً، فعدّل من أفكاره وأسس في عام **١٩٣٨م الاتحاد الشعبي الجزائري**، داعياً إلى فكرة «الارتباط» بدلاً من «الاندماج»[١]. وفي النهاية آمن عباس فرحات بضرورة تحرير (الوطن الجزائري) من فرنسا، فانضمّ في عام **١٩٥٠م** إلى ثورة التحرير، بل ترأس الحكومة الجزائرية المؤقتة في المنفى، وأعطى قضية التحرير ما تبقى من شبابه.

نشطت الحركة السياسية في الجزائر بفعل التفاعل بين المنظمات السياسية التي أسسها المثقفون بالفرنسية المؤيدون لفكرة الاندماج في فرنسا، وبين الذين لم يؤيدوها كمصالي الحاج مثلاً. وقد أدى هذا التفاعل إلى ظهور مجموعة أخرى هي **مجموعة العلماء**. ومع أن العلماء كانوا منذ نهاية القرن التاسع عشر، يتجاوبون مع الأحداث بدرجات متفاوتة، إلا أنهم كانوا يعينون من قبل فرنسا ولم تكن لهم هيئة تضمهم. أما العلماء الجدد فإن نشأة الأحزاب السياسية، وغيرها من العوامل الاجتماعية والفكرية، فرضت عليهم أن ينتظموا في مؤسسة لها نظام أساسي وأهداف محددة، فأسسوا **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين**، وذلك من أجل تفعيل مشروع الإصلاح الذي بدأت معالمه تتبلور.

كانت ثقافة مؤسسي الجمعية وأعضائها عربية إسلامية، متأثرة بحركة الإصلاح في المشرق العربي، وخاصة الحركة السلفية. وكان أعضاؤها قد تشربوا في شبابهم وسني تكونهم الفكري آراء جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وتلاميذهما. فقد تلقى أعضاء الجمعية الفاعلون تعليمهم خارج الجزائر في مراكز كانت تعج بأفكار الإصلاح والتجديد؛ فعبد الحميد بن باديس مثلاً درس في الزيتونة، ومرّ على الأزهر فأجيز منه، كما درس

(1) Lorna Hahn, **North Africa from Nationalism to Nationhood,** Public Affairs Press, 1960, P. 140.

محمد بشير الإبراهيمي في المدينة المنورة، وأقام في دمشق وجلس للتدريس في جامعها الأموي، ودرس الشيخ الطيب العقبي في الحجاز، ودرس المشايخ العيد والعمودي وأحمد توفيق المدني في الزيتونة. أما الشيخ الميلي فقد درس في كل من الزيتونة والأزهر. وقد كان لهذه الجمعية الأثر البالغ في تاريخ الجزائر وفي تكوين بن نبي الثقافي والفكري.

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

استلهمت الجمعية أفكار المدرسة السلفية، وتبنت بالتحديد أفكار محمد عبده وتلاميذه، وقد تأسست الجمعية عام **١٩٣١**م على أيدي مجموعة من العلماء الذين اجتمعوا من مختلف أنحاء الجزائر لينتخبوا عبد الحميد بن باديس في أول اجتماع لهم بنادي الترقي بالعاصمة[١].

ولد بن باديس (١٨٨٩ - ١٩٤٠م) في أسرة من الأعيان وصفها ألبرت حوراني بأنها الوحيدة تقريباً التي استطاعت أن تحتفظ بمستواها منذ العصور الوسطى[٢]، فهي أسرة عريقة تمتد جذورها إلى مؤسس الدولة الصنهاجية في القرن الحادي عشر الميلادي، المعز بن باديس الصنهاجي[٣]. وقد أبدى نابليون الثالث نفسه تقديراً واعترافاً بمكانة هذه الأسرة وعراقتها، فمنح وسام الشرف لعميدها المسن المكي بن باديس[٤]،

---

(١) أحمد توفيق المدني: **حياة كفاح**، ٢/١ - ٩. ولمزيد من التفصيلات عن الجمعية، انظر: **مذكرات الشيخ محمد خير الدين**، مطبعة دحلب، الجزائر، ١٩٨٥م، ١/١٠٣ - ١٢٢.

(2) Albert Hourani, **Arabic Thought in the Liberal age,** London, N.y., Oxford University press, 1966, P.367.

(٣) محمود قاسم: **الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية**، دار المعارف، د. ت، ١٥.

(4) Ali Merad, Ibn Badis, **Commentateur du Coran,** Librarie Orientaliste, 1971, P. 24.

كما كان مصطفى بن باديس، والد عبد الحميد، رجلاً ذا نفوذ إبان فترة الاحتلال الفرنسي؛ مما مكّنه من مساعدة ابنه في تحقيق بعض أهدافه الإصلاحية، فأعانه على أن يصبح مدرّساً، وأن يصدر صحفاً[١]. درس بن باديس في مدارس تحفيظ القرآن بقسنطينة، ثم تلقّى دروساً على يد الشيخ حمدان الونيسي (١٨٥٦-١٩٢٠م)، قبل أن يسافر إلى الزيتونة ويتعلم على مشايخها وعلمائها من أمثال الشيخ محمد النخلي والشيخ محمد الطاهر بن عاشور، لمدة أربع سنوات (١٩٠٨ - ١٩١٢م). رحل بن باديس قبيل الحرب العالمية الأولى إلى المشرق العربي من أجل أداء فريضة الحج، ثم ذهب إلى المدينة المنورة ليلتقي بشيخه القديم حمدان الونيسي المجاور بالمدينة، وقد أخذ منه شيخه عهداً بألّا يعمل في أي منصب رسمي[٢]، وأن يتفرّغ للتعليم والدعوة، وهو الطريق الذي سلكه بن باديس حتى وفاته، معتمداً في ذلك على ثروة أبيه التي أغنته عن الكسب. وفي طريق عودته إلى وطنه مرّ بالقاهرة، والتقى بشيخ الأزهر سابقاً مفتي مصر الشيخ محمد بخيت (١٨٥٤ - ١٩٣٥م)[٣]، الذي منحه الإجازة العلمية.

بدأ بن باديس التدريس في الجامع الرئيس بمدينته قسنطينة والمسمَّى بـ (الجامع الأخضر)، لكنه ما لبث أن مُنع من التدريس بأمر من المفتي بن موهوب الذي ضايقه أن يحصل بن باديس على إذن خاص للدراسة في الزيتونة. وقد اعتبر مصطفى بن باديس - الوالد - ذلك إهانة شخصية له،

---

(١) كان والده مصطفى بن باديس عضواً في المجلس الأعلى للجزائر، وعضواً في مجلس العمل بقسنطينة.

(٢) مراد: **الإصلاح**، ٨٢، محمود قاسم: مرجع سابق، ١٦. وانظر كذلك: فهمي سعد: **حركة عبد الحميد بن باديس**، بيروت ١٩٨٣م، ٥٠.

(٣) الشيخ محمد بخيت: شغل منصب مفتي مصر من عام ١٩١٤م وحتى ١٩٢١م. درس بالأزهر ودرّس فيه، كان على علاقة بجمال الدين الأفغاني، لكنه عارض منهج محمد عبده في الإصلاح، وخاصة إصلاح الأزهر.

فسافر خصيصاً إلى الجزائر ليستصدر إذناً لابنه بالتدريس في مسجد العائلة المسمى بـ(جامع سيدي قموش)[١]. استمر بن باديس في مشروعه للتعليم العربي الذي أصبح يتسع، وفي عام **١٩١٧**م حيث أنشأ قسماً للدراسة الثانوية في (جامع سيدي فتح الله)، ثم أضاف إلى منهجه - بعد عام واحد - اللغة الفرنسية، فكانت تلك هي المرة الأولى التي تدرس فيها هذه اللغة خارج المدارس الحكومية[٢]، وقد كان التعليم في مساجد قسنطينة قبل ذلك مقصوراً على الكبار؛ إذ يرسل الصغار إلى الكتاتيب، لكنّ بن باديس كان أول من وجه جهوده التعليمية للجيلين معاً في المساجد التي كان يشرف على التدريس فيها[٣]. كما تنبه بن باديس مبكراً إلى أهمية تعليم الفتيات، فأنشأ في عام **١٩١٨**م أول مدرسة للبنات، ثم دعّم جهوده بتأسيس **جمعية التربية والتعليم** لتمويل مشروعاته التعليمية التي كان يعتمد فيها على دعم والده المالي[٤]، وقد انتشر تعليم العربية في أنحاء عدة من الجزائر بفضل جهود بن باديس ورفاقه حتى وصل إلى أنحاء نائية مثل الأغواط جنوباً، ووهران ومنطقة سان ديني فيها؛ أي في قلب أحياء المعمّرين. وبنهاية عام **١٩٣١**م وصل عدد المدارس إلى عشرين[٥]، وارتفع العدد إلى ثلاثة أضعاف عام **١٩٣٥**م، ثمّ وصل - بعد ثلاث سنوات - إلى مئة وخمسين مركزاً تعليمياً[٦]، وقد وصف أحمد

---

(1) Andre Dirik, **Abd al - Hamid ibn Badis (1889 - 1940): Ideology of Islamic Reformism and Leader of Algeria Nationalism,**
رسالة دكتوراه غير منشورة قدمت لمعهد الدراسات الإسلامية، جامعة ماجيل، كندا، ١٩٧١م، ١٦٥.

(٢) المرجع السابق.

(٣) عمار الطالبي: **آثار بن باديس**، ١١٤.

(٤) ديريك: ١٦٥.

(5) John Demis, "The Free School Phenomenon", **The International Journal of Middle East Studies,** n5, 1974, P. 441.

(٦) جاك بيرك: مرجع سابق، ٣٦١.

توفيق المدني جهود جمعية العلماء هذه بقوله: «أقدمت بجهودها الخاصة الضئيلة على إنشاء ما يزيد عن مئة وسبعين مدرسة يتراوح فصول المدرسة منها بين فصلين وسبعة، وقد تباهت الأمة، على فقرها المدقع، ببناء تلك المدارس تحت إشراف جمعية العلماء ورقابتها، فكان ما بلغت تكاليف بنائه خمسة عشر أو عشرين مليوناً من الفرنكات»[1].

ازدهر التعليم العربي الإسلامي في العشرينيات والثلاثينيات، وبشكل خاص بعد الحرب العالمية الثانية؛ ذلك أنّ الإدارة الفرنسية قد تغاضت عن جهود بن باديس ونشاطه، ثقة في أبيه ومراعاة له، ولكن عندما أصبحت تلك المدارس تحت إشراف **جمعية العلماء**، فقد أصبحت الإدارة الفرنسية في حالة من التوجس والحذر. وعلى حرص الجمعية على تجنب الخوض في السياسة والتركيز على التعليم والتربية، فقد وضع الفرنسيون مدارسها تحت المراقبة المستمرة منذ عام **١٩٣٣**م؛ ذلك أنهم لم يعتبروها مراكز للتعليم، وإنما اعتبروها مؤسسات ذات نشاط سياسي؛ مصنفين ذلك النشاط بأنه عدائي ومتعصب، مستشهدين بالشعارات والأناشيد التي كان يرددها الطلاب والمدرسون في أثناء تجمعاتهم، كما أثارهم شعار الجمعية الذي وضعه بن باديس نفسه: (**الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا**)، كما أثارت حفيظتهم أبيات بن باديس الشهيرة التي كان ينشدها الصغار والكبار في كل المناسبات والتي تقول:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب
يا نشء أنت رجاؤنا وبك الصباح قد اقترب
خذ للحياة سلاحها وخض الخطوب ولا تهب

(١) المدني: هذه هي الجزائر، ١٤٤ - ١٤٥.

وأذق نفوس الظالمين السمَّ يُمزج بالرهب
واقلع جذور الخائنين فمنهم كل العطب
واهزز نفوس الجامدين فلربما تحيي الخشب

شعرت الإدارة الفرنسية، في مرحلة ما، بأن هذه المدارس قد بدأت تكثر وتقوى، وأنها قد أصبحت تهدد سلطتها. عندئذ تدخلت من أجل تقليص نشاطاتها فأقفلت عدداً منها بدعوى أنها «أبنية غير مناسبة، وغير صحية وخطيرة»[١]. ومع ذلك فقد استمرت الجهود التعليمية على يد الإصلاحيين تدعمها يقظة وطنية شاملة مكنت الجمعية من بناء المدارس بجهد ذاتي ومن تبرعات الأهالي، فزاد الاهتمام بتعليم البنين والبنات، بل إرسالهم إلى الخارج للدراسة العليا بعد تخرجهم، وكان العلماء قد دخلوا بذلك - أرادوا أم لم يريدوا - في منافسة مع المدارس الفرنسية العصرية، ومع المدارس التقليدية المتواضعة، فبينما كان تلاميذ المدارس القرآنية مثلاً يجلسون على الأرض، ويكتبون على ألواح من الخشب، كان تلاميذ مدارس **جمعية العلماء** يجلسون على المقاعد، ويكتبون على الكراسات[٢].

وهب بن باديس حياته للنهوض ببلاده تربوياً وثقافياً ودينياً، وكان ينتسب، باعتباره شخصاً ورئيساً لجمعية العلماء الجزائريين، إلى أولئك الرجال الذين آمنوا بأفكار محمد عبده وحاولوا تطبيقها في بلاد المغرب[٣]، مازجاً السمات والخصائص المحلية في حركة إصلاحية إسلامية فريدة؛ ذلك أن الآثار الثقافية والتاريخية التي نتجت عن قرن

(١) مراد: **الإصلاح**، ٣٣٩ - ٣٤٠.
(٢) هيجوي: "التعليم العربي"، ١٥٥.
(٣) جاك بيرك: مرجع سابق، ٢٢٨.

كامل من الاحتلال، جعلت بن باديس مع إيمانه بالسلفية والأفكار الإصلاحية المنتشرة في المشرق، يكوّن رؤية خاصة به تأخذ في الاعتبار المعطيات المحلية، بشكل جعل حركة الإصلاح الجزائري ملائمة لظروفها، ومنسجمة مع خصوصية الجزائر التاريخية، وهو ما يتفق مع ما ذهب إليه بن نبي في مذكراته من أن المكونات المحلية في حركة الإصلاح الجزائري كانت غالبة، مع كل تأثرها بحركة الإصلاح المشرقية.

كان بن باديس مضطراً إلى مواجهة عدة تحديات؛ فمهمته الأولى كانت معالجة المشاكل التي يعاني منها مجتمعه؛ وهو التحدي الذي وجه إليه مجهوداته الدائبة في مجال التعليم والتوعية والإحياء، أما مهمته العظمى الثانية فكانت متمثلة في حملته القوية ضد فئة من الحركة الصوفية التي تحالف أعضاؤها مع بعض العلماء الآخرين، فأسسوا منظمة منافسة ومناوئة **لجمعية العلماء المسلمين** الجزائريين أطلقوا عليها اسم **جمعية علماء السنة**. وقد قوي الصراع بين العلماء والطرقيين - كما يسمونهم - وذلك بتشجيع من الفرنسيين وبإشرافهم، وكما لاحظ المستشرق جاك بيرك فلقد استعملت الإدارة الفرنسية الطرقيين ضد العلماء، فمنعت الخطابة الحرة في المساجد، وعارضت التعليم، وشجعت الجمعيات المعادية، وخنقت الصحافة المعارضة إلى أبعد مدى، وحرّكت أجهزة الشرطة للعمل[1]، وهو ما جعل حركة الإصلاح الجزائري تقف في مواجهة تحديات عديدة على مختلف الأصعدة، ومثلما شرح كارل براون:

«لقد واجه الإصلاح الإسلامي في شمال إفريقيا مشكلات مزدوجة، فقد كان عليه أولاً أن يكسب (المعركة الداخلية) للحصول على ثقة جماعة المسلمين، ثم عليه أن يستجمع طاقة تلك الجماعة في قوة فاعلة، وعندها

(١) المرجع السابق: ٧٦.

فقط يستطيع أن يلتفت إلى (المعركة الخارجية) ليحقق التحرر من القوة الغاشمة غير المسلمة، المتمثلة في الاستعمار الغربي»[١].

استخدم بن باديس ورفاقه وسائل متعددة لتحقيق هدفهم الإصلاحي؛ ففي عام **١٩٢٥**م؛ أي قبل تأسيس الجمعية، أصدر صحيفته الأولى **المنتقد**، التي كانت تصدر أسبوعياً. وكانت الصحافة أجدى الوسائل التي استعملها بن باديس في محاولاته لتأهيل المجتمع الجزائري وتحفيزه، وكان القصد من اختيار عنوان **المنتقد** توصيل رسالة إلى الطرقيين يتحدى فيها شعارهم الذي تبنوه وهو «اعتقد ولا تنتقد»[٢]، وكان هذا التحدي هو التجربة التي صهرت بن باديس وحركة العلماء الإصلاحية، وأهلتهم للقيام بدورهم وتنويع وسائلهم وتعزيز منهجهم الفكري بثوابت الإسلام النقي.

وفي العام نفسه أسس بن باديس داراً للطباعة أسماها **المطبعة الجزائرية الإسلامية**، سهّلت إنجاز أعماله الثقافية والتعلمية، كما سهلت له إصدار الصحف تباعاً؛ فبعد أن أوقفت الحكومة جريدته **المنتقد** أصدر بعدها مباشرة **الشهاب** التي عمّرت طويلاً وكان لها دور مميز في تاريخ الجزائر الثقافي، وخاصة في الثلاثينيات. كانت الصحيفة في البداية جريدة أسبوعية، ثم تحولت عام **١٩٢٩**م إلى مجلة شهرية[٣] شعارها (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها). وقد أمر بن باديس بإيقاف **الشهاب** عام **١٩٣٩**م؛ أي قبل وفاته بقليل، وقد كانت منبره الخاص للتعبير عن أفكاره ومبادئه، وكان يتحمّل مسؤولياتها وحده عندما لا يقبل أحد ذلك؛ فعندما كانت فرنسا تستعد للاحتفال الضخم

---

(1) Leon Carl Brown, "The Islamic Reformist Movement in North Africa", **Journal of Modern African Studies,** March 1947.

(٢) محمد الميلي: **بن باديس وعروبة الجزائر**، بيروت، ١٩٧٣م، ١٢.

(٣) عمار طالبي: **الآثار**، ٨٥.

بالعيد المئوي لاحتلال الجزائر وإدماجها، طلب بن باديس من **جمعية العلماء المسلمين** أن توجه عبر صحافتها دعوة إلى الشعب الجزائري لمقاطعة تلك الاحتفالات، لكنّ الهيئة المسؤولة في الجمعية رفضت هذا الطلب، فما كان من بن باديس إلا أن كتب تلك الدعوة ونشرها في **الشهاب** متحملاً مسؤوليتها. ومع أن الصحيفة كانت لسان حال بن باديس شخصياً، فإن زملاءه الإصلاحيين كانوا يسهمون في كتابة موضوعاتها. وفي عام **١٩٣٣**م أصدرت **جمعية العلماء** صحفها الخاصة: **السنة** و**الشريعة** و**الصراط**[١]، وبعد ذلك بعامين أصدرت صحيفة **البصائر** التي استمرت في الصدور إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية؛ حين توقفت لتعود عام **١٩٤٧**م كأقوى ما تكون. وحينما توفي بن باديس حمل الراية من بعده محمد البشير الإبراهيمي (**١٨٨٩-١٩٦٥**م) الذي أبدع في تدبيج افتتاحيات الصحيفة وموضوعاتها الرئيسة، مؤسساً بذلك مدرسة راقية في النثر الأدبي الجزائري خاصة، والعربي عامة. وقد واصلت الصحيفة دورها الثقافي والصحفي حتى عام **١٩٥٦**م[٢]؛ أي بعد اندلاع الثورة بعامين.

قاد عبد الحميد بن باديس **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين** في مهامها الإصلاحية المتعددة من النقد الاجتماعي والتخطيط التربوي والتصحيح العقيدي، إلى القيادة الوطنية والفاعلية السياسية. ومع أن جمعية العلماء قد اعترفت بالوجود الفرنسي بصفته أمراً واقعاً، فإنها كانت تؤكد في جميع أدبياتها على استقلالية هوية الجزائريين وتميزها[٣]،

---

(١) مراد: **الإصلاح**، ١٤٩.

(٢) طالبي: **الآثار**، ٨٧ - ٨٨.

(٣) في معظم أدبيات الجمعية التي صدرت في العشرينيات والثلاثينيات لم يظهر مفهوم الجزائر المستقلة، ولكن مع اعتراف جمعية العلماء بعد ذلك باحتلال فرنسا للجزائر، وكون بلادهم تابعة لفرنسا ومحتلة من قبلها، فقد هاجمت =

كما كانت جهودها موجهة لإثبات ذلك وترسيخه، ومع ادعاء العلماء بأن جمعيتهم ليست حزباً سياسياً، فإن الجمعية قد تعاملت مع السلطة الفرنسية على مستويات عدة، وكانت في كل مناسبة تحرص على التأكيد على أن الجزائريين هم أولاً وقبل كل شئ مسلمون عرب.

وعندما اشتركت **جمعية العلماء** في **المؤتمر الجزائري الإسلامي** عام **١٩٣٦**م وانضمت إلى الوفد الذي سافر إلى باريس، كان هدفها تحقيق أغراضها الإصلاحية، وهو ما دفعها إلى التحالف مع الأحزاب السياسية الجزائرية لرفع مطالب الجزائريين الوطنية إلى الحكومة الفرنسية الجديدة التي شكلتها **الجبهة الشعبية**. وقد تركزت مطالب جمعية العلماء في الاعتراف بالعربية لغةً ثانية، وإيقاف تدخل الجهات الرسمية في كل ما يتعلق بالإسلام، ورفع الرقابة الصارمة عن الصحافة وعدم التضييق عليها أسوة بالصحافة الفرنسية، ثم منح الحرية للتعليم العربي والإسلامي[١]. وقد استدعى ذلك أن يتعامل العلماء مع الأحزاب السياسية بتوجهاتها المختلفة، حتى تلك التي تقبل بفكرة الاندماج وتنكر وجود أمة جزائرية[٢]. وقد رأى بعض الدارسين أن اشتراك العلماء مع الاندماجيين كان من سوء حظ الجمعية، وبالفعل فقد صدم اشتراك الجمعية في الوفد، وسفر بن باديس شخصياً إلى باريس، مالكَ بن نبي الذي كان على صلة روحية بحركة الإصلاح عامة، وبقائدها بن باديس خاصة، وقد انتقد بن نبي هذه الخطوة من قبل العلماء في مذكراته وفي عدد من كتاباته، مما سنتعرض له لاحقاً.

= الاستعمار بأقوى لهجة وأعنفها، وعملت على التركيز على فكرة الجزائر العربية المسلمة، ذات الثقافة والتراث والحضارة المختلفة عما تمثله فرنسا.

(١) للاطلاع على مطالب المؤتمر انظر: أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية (١٩٣٠- ١٩٤٥م)، جامعة الدول العربية، ٣/ ٢٧٧ - ٢٧٨.

(2) Clement Henry Moore, **North Africa,** Little Brown and Company, Boston, P. 82.

لقد توفي بن باديس في مرحلة مبكرة من عمره ومن عمر الإصلاح الجزائري، ولكنه استطاع بشخصيته الفذة، ونشاطه المتواصل أن يؤدي دوراً عظيماً في النهضة الجزائرية، كما واصلت الدور نفسه **جمعية العلماء**؛ فكان لهما تأثير كبير في الحركة الوطنية الجزائرية التي خاض الشعب معها ملحمة التحرير، تلك الصفحة الرائعة في تاريخ الأمة الحديث.

في وسط هذه البيئة، وخلال هذا العصر وبتأثير هذه العوامل المتشابكة نمت وتطورت شخصية مالك بن نبي الذي تلقى جزءاً من تعليمه في سني تكونه المبكّر في مدينة قسنطينة، التي رعت وألهمت عبد الحميد بن باديس وحركته الإصلاحية، وجمعيته للعلماء المسلمين؛ ولذلك لم يكن غريباً أن يصبح الإصلاح المدرسة التي ظل بن نبي ينتمي إليها، على الأقل حتى عام ١٩٣٦م؛ وكانت إرهاصات الوعي بالذات الحضارية واليقظة الفكرية والاجتماعية والسياسية التي كانت تأخذ مداها في الجزائر، هي الخيوط التي نسجت شخصية بن نبي، فكان وهو يعيش في بلد مستعمر، ويتعلم في معاهد استعمارية، يدرك تماماً تميزه وتميّز هويته؛ ولهذا فقد كان الحفاظ على تلك الهوية وتحسس أبعادها وإثراء روافدها عملية فكرية وثقافية عاشها بن نبي في بداية شبابه، وقطف ثمارها في سني نضجه، بل رافقته طوال مراحل حياته التي سنلقي الضوء على بعض جوانبها في الفصل اللاحق.